مع الرسول
في القرآن الكريم

مع الرسول ﷺ
في القرآن الكريم

أولاً: في تربيته ونشأته والإعداد لرسالته:

إذْ لا يغيبُ عنَّا من أمر نشأته ﷺ وإعداده وتربيته وبَعثته شيءٌ.

فقد نشأ ﷺ يتيماً، فآواه الله.

وذلك أنَّ أباه تُوفِّيَ وهو حَمْلٌ في بطن أُمِّه، ثم تُوفِّيَت أُمُّه "آمنةُ بنتُ وهْب" ولَهُ من العُمر ست سنوات، ثم كان في كفالة جَدِّه "عبد المطلب" إلى أن تُوفِّيَ وله من العُمر ثمان سنين، فكفله عمُّه "أبو طالب" ثم لم يزل يَحوطه وينصره، ويرفَعُ من قَدْره ويُوقِّره، ويَكُفُّ عنه أذى قومِه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره. هذا وأبو طالب على دينِ قومه من عبادة الأوثان! وكُلُّ ذلك بقَدَرِ الله، وحُسن تدبيره.

وتلك عناية الله به، ورعايته له.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾.[1]

ما ودَّعه الله أبداً، ولا قَلاه حتى قبل أن يَعهد إليه بما أوحى إليه.

لقد أحاط يُتْمَهُ بِرِعَايته، وأدركت حيرَته هدايتُه.

وقد كان فقيراً، فأغنى الله نفسَه بفضله وعطائه..

---

(1) الضحى: ٦ـ ٨.

إذْ « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ [1] وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ ».[2]

فمَا قَلاه الله ولا جَفَاهُ من قبل أن يبعث ومن بعد.

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾.[3]

سورة "الضُّحَى" هذه مكّية، وآياتُها إحدى عشرة.

ومُجمل ما ورد في سبب نزولها: أنَّ الوحيَ فَتَرَ عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريلُ عليه السلام، فقال المشركون: « وُدِّعَ محمدٌ »، فأنزل الله تعالى هذه السورة خالصةً كلها للنبيِّ محمدٍ ﷺ.

تُبيِّنُ أنه:

موضع العناية والتكريم، من بداية أمره إلى منتهاه.

وأنه موصولٌ بالنعمة والعطاء في دُنياه وأُخراه.

وأنَّ زادَه من الوحي ولِقاءِ جبريل والاتِّصال بالله مُمتدٌّ لا ينقطع.

سورةٌ تبدأ بالقَسَمِ بـ (الضُّحَى والليل إذا سَجَى) في آيتين، وما بعد القَسَم كُلُّه خطابٌ لرسول الله ﷺ.

---

(1) الْعَرَض: مَا يُنْتَفَع بِهِ مِنْ مَتَاع الدُّنْيَا.

(2) البخاري: كتاب الرقاق.

(3) سورة الضحى.

ومَن شاء أن يتدبرَ هذه السورة فَلْيَعْلَمْ أن ما خَصَّ الله به نبيَّهُ ـ من إيواءٍ، وهدايةٍ، وتعظيمٍ ـ يُتلى في آيات الذِّكر الحكيم؛ ليكون بلاغاً للعالمين، فمَن ذا الذي يقرأُ هذه السورةَ فلا يرى فيها رسولَ الله، كما أراه الله ؟

يَرَاهُ في يُتْمِهِ وقد آوَاهُ ربُّه.

يَرَاهُ في حَيْرته ـ طلباً لهداية قومه إلى صراطٍ مستقيم ـ وقد هداه.

يَرَاهُ عائلاً قد أغناه ربُّه بغِناه.

يَرَاهُ في الحياة ـ من بعد ـ مع اليَتيم أَبَاً يفوقُ في رحمته رحمةَ الآباء، وفي سخائه بنعمةِ الله يفوقُ كُلَّ سَخَاء.

بل يَرَاهُ في حياته كُلِّها يُؤثِرُ ما ارتضاه له الله.

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

وهو الذي يدعو ربَّه ويقول: « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا ».[1]

قالت عَائِشَةُ ـ رضي الله عنها ـ: « مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَلاَ شَاةً وَلاَ بَعِيرًا، وَلاَ أَوْصَى بِشَىْءٍ ».[2]

وعنها ـ رضي الله عنها ـ: قالت: « مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ، ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ ».[3]

وقالت ـ رضي الله عنها ـ: « إِنْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَنَمْكُثُ شَهْرًا مَا

---

(1) مسلم: كتاب الزكاة.

(2) مسلم: كتاب الوصية.

(3) البخاري: كتاب الأيمان والنذور.

نَسْتَوْقِدُ بِنَارٍ، إِنْ هُوَ إِلاَّ التَّمْرُ وَالْمَاءُ ».[1]

وقد قال النبيُّ ﷺ: « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا.

قُلْتُ: لاَ يَا رَبِّ. وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا، وَأَجُوعُ يَوْمًا..

فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ..

وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ ».[2]

ولما احتضر النبيُّ ﷺ استعارت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ زيتَ سراجِهَا من إحدى جاراتها !!

ومِمَّا هو جديرٌ بالذِّكر ـ في هذا المقام ـ أنَّ مظاهِرَ الزُّهْدِ هذه كلها كانت اختيارية غير اضطرارية. لم يكن يقصد منه التضييق على الناس في الانتفاع بالطيِّبات.

روى الترمذيُّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قَالَ:

نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ.

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ؟

فَقَالَ: « مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا. مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ».[3]

سورة "الضُّحَى" يقرأها القارئُ في القرآن الكريم، فيرى فيها رسولَ الله ﷺ كما صَنَعَهُ الله واصطفاه.

---

(1) مسلم: كتاب الزهد والرقائق.

(2) الترمذي: كتاب الزهد، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(3) الترمذي: كتاب الزهد، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

سورةٌ يبدأ القَسَمُ فيها بـ ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾

والمُقْسَمُ عليه قولُه: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾

ومَا بين المُقْسم والمُقْسم عليه من تناسب فيه إيحاءٌ للنفس ـ أي إيحاء ـ إذا ما لاحَظْنَا ما يلقاه المؤمنُ من أحوالٍ في هجير الحياة، وهو موصول دائماً بالله، ناعمٌ برضاه.

فلا يكونُ سجى الليل عليه إلاَّ راحةً وسُكوناً، ولا يكون الضُّحى إلاَّ إشراقاً ونُوراً؛ ففي تقلُّبِ الليل والنهار عِبرةٌ لأولي الأبصار، وفي تقلُّبِ الأحوال إظهارٌ لمعادنِ الرجال.

والله وحده هو الذي يُقلِّبُ الليلَ والنهار، والله وحده هو الذي يبتلي الناسَ بتقلب الأحوال، فلا يكون الرجاء والخوف ـ دائماً ـ إلاَّ في الله، ومن الله.

وهذا ما كان من رسول الله ﷺ.

ثانياً: في علاقته ﷺ بغيره:

عندما نتدبَّرُ ذلك في القرآن الكريم نرى علاقَتَهُ مع الناس جميعاً علاقة رسولٍ يُبلِّغُ ما أُنزل إليه من ربِّه.

آمَنَ بما أُنزِلَ، وَتَخَلَّقَ به، فكان داعياً إلى الله ـ مع البلاغ ـ بسائر أخلاقه وآدابه، من الدِّين، والعِلم، والحِلم، والصَّبر، والشُّكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعِفَّة، والجُود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والتُّؤدة، والوقار، والرحمة، وحُسن الأدب والمعاشرة..

وجميع صفاته يجمعها قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.[1]

وقد كان ﷺ خُلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخطُ بسخطه.

نعم، فقد صار امتثالُ القرآن ـ أَمْراً ونَهْياً ـ سَجِيَّةً له وخُلُقاً.

فَمَهْمَا أَمَرَهُ القرآنُ فَعَلَه، وَمَهْمَا نَهَاهُ عنه تَرَكَهُ.

هذا ما كان عليه من الخُلُق العظيم ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ:

« مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ».[2]

وذلك ما جُبِلَ عليه، وما أخبر الله به.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.[3]

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾.[4]

---

(1) القلم: ٤.

(2) مسلم: كتاب الفضائل.

(3) آل عمران: ١٥٩.

(4) التوبة: ١٢٨.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي: برحمةٍ من الله.

وقال الحسنُ البصري: هذا خُلُق محمدٍ ﷺ بَعَثَهُ الله به.

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾

والفَظُّ: الغليظ. والمراد به ـ هَهُنَا ـ غليظُ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ أي: كُنتَ سيئ الكلام، قاسي القلب عليهم، لانفضُّوا عنك وتركوك. ولكنَّ الله جمعهم عليك، وَألاَنَ جانِبَكَ لهم؛ تأليفاً لقلوبهم.

كما قالت عَائِشَةُ ـ رضي الله عنها ـ وقد سُئلتْ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: « لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا[1] وَلاَ مُتَفَحِّشًا [2] وَلاَ صَخَّابًا [3] فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ ».[4]

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يُشاور أصحابَه في الأمر إذا حَدَثَ؛ تَطييباً لقلوبهم؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه.

كما شاورهم ﷺ يوم بَدْرٍ.

فقالوا: يا رسول الله، امْضِ لِمَا أَرَدْت؛ فَنَحْنُ مَعَك. فَوَالَّذي بَعَثَك

---

(1) أي ذا فُحْشٍ في أقواله وأفعاله.

(2) أي مُتكلفاً فيه ومتعمدا.

(3) الصَّخَبُ: الصِّياحُ والجَلَبَةُ، وشدة الصوت واختلاطه.

(4) الترمذي: كتاب البر والصلة، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

بالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ، فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا تَخَلَّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ. ولا نَقُولُ لَك كَمَا قَالَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1] وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فَقَاتِلا انّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ سِرْت بِنَا إلَى "بَرْكِ الْغُمَادِ"[2] لَجَالَدْنَا مَعَك مِنْ دُونِهِ حَتّى تَبْلُغَهُ.

وشاورهم ﷺ يوم "أُحُد" في أن يقعُدَ في المدينة أو يخرجَ إليهم.

كما شاورهم يوم "الخندق" في مُصالحة الأحزاب بثُلث ثِمار المدينة عامئذٍ، فأبى ذلك السَّعْدان: سعدُ بن معاذ، وسعدُ بن عبادة. فترك ذلك.

فكان ﷺ يشاورهم في الحرب، وفي غيرها.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما ».[3]

وروى بن مردويه عن عليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال:

سُئِل رسولُ الله ﷺ عن العَزْمِ ؟ فقال: « مشاورة أهل الرأي، ثم اتباعهم ».

وروى ابن ماجة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: « الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ ».[4]

---

(1) المائدة: ٢٤.

(2) موضع في أقاصي هجر.

(3) أحمد: (١٨٠٢٣) وفي إسناده ضعف.

(4) ابن ماجة: كتاب الأدب.

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا شاورتَهم في الأمر، وعزمتَ عليه، فتوكّل على الله فيه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

هكذا كان رسولُ الله مع أصحابه..

وتلك خصائصه معهم ومع غيرهم.

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾.

الخطابُ بقوله: ﴿ مِّن أَنفُسِكُمْ ﴾ للعربِ ولقريش، وهو كذلك خطابٌ للعالمين؛ لأنَّ هذا الرسول الذي عظّم شأنه بالرسالة هو من جِنس البشر.

وقُرِئَ: (مِنْ أَنْفَسِكُمْ) بفَتح الفاء، من النَّفَاسَة. ومعناه: أنه من أشرفكم وأفضلكم.

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ عَنتم: من العَنَت، بمعنى المشقّة والفساد والهلاك.

شَاقٌّ عليه عَنَتُكم، وهو ما تلقونه من عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؛ فإن النبي ﷺ يشقُّ عليه كُلُّ ما يَشُقُّ ويصعب عليكم.

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ومادة "حَرِص" إذا تَعَدَّتْ بحرف "عَلَى" فإنها تدل على شدةِ الطَّلَبِ، وغاية الحرص. وهكذا كان الرسول ﷺ يرغب في نَفْعِ أُمَّتِهِ غاية الرغبة. فأمنيته صلاح الأُمَّةِ وهدايتها.

ومع ما كان يلقاه ﷺ من قومه من أذى لم يَدْعُ عليهم، بل دَعَا لهم،

وقال: « اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون » !

كان شديدَ الحرصِ على هدايتهم، شديدَ الحُزن لِتركهم الإيمان وبُعدهم عنه، كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾.(1)

﴿ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أي مُهلك نفسَك بحُزنك عليهم ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ يعني: القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ أي: لا تُهلك نفسَك أَسَفاً، ولا تَأسف عليهم، بل أَبلغهم رسالةَ الله، فمَن اهتدى فلنفسه، ومَن ضَلَّ فإنما يضِلُّ عليها ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾.(2)

فأيُّ حِرصٍ أعظم وأبلغ من ذلك ؟

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُسلِّيه، ويُسرِّي عنه؛ ليُخفف من أَسَفِهِ عليهم وحُزْنِهِ البالغ على تركهم الإيمان، وبُعدهم عنه. وهو يعلمُ ما هم صائرون إليه إن لم يؤمنوا بما جاءهم به ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

قال الحسنُ بن الفضل: « لم يجمع الله لأحدٍ من أنبيائه اسمين من أسمائه ـ تعالى ـ إلاَّ للنبيِّ، فسمَّاه رءوفاً رحيماً » وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾.(3)

---

(1) الكهف: ٦.

(2) فاطر: ٨.

(3) البقرة:١٤٣.